مطايا الاستعمار(١)

نشرت الجمهورية في عددها الصادر بتاريخ ٢٩ - ١٢ - ١٩٥٣ ما يأتي نقلًا عن صحيفة «التيمز» اللندنية:

«يتقدم الإسلام بخطىٰ سريعة في غرب أفريقيا، حتىٰ أن بعثات التبشير والأوربيين علىٰ السواء، ليبدون قلقًا شديدًا مما قد يترتب علىٰ انتشار الإسلام في المنطقة كلها، وكان الاعتقاد قديمًا أن الإسلام هو دين شعوب الصحراء، وقد يتجه نحو الحضر، وما كان أحد ليصدق أنه يستطيع اختراق المناطق الاستوائية، وأن يصل إلىٰ الجنوب، كما حدث في سيراليون، والساحل العاجي، وساحل الذهب، وداهومي.

ويخشىٰ رجال الإدارة علىٰ الأخص من أن انتشار الإسلام في هذه البقاع يتبعه اتصالات بالقاهرة، وبالعالم العربي، ويختلف المفكرون الغربيون في اتجاههم الفكري نحو مستقبل الإسلام في أفريقيا؛ فمن قائل إن تقدم الإسلام لن يضر بالمصالح الاستعمارية ما دام يسير في الخطوط التي رسمها له المستعمر، بينما يرىٰ آخرون ضرورة الحد من تقدم الإسلام عن طريق نشر البدع والخرافات، حتىٰ يكون هذا بمثابة حائل يقف أمام ضغط الإسلام المتزايد»!!

أرأيتم أيها المسلمون؟! تدبروا هذا النذير، لعلكم تعرفون من أين أتيتم، ومن أين تُؤْتَوْن!؟

---

(١) (٦، ٧/ ١٣٧٣).

هكذا أفصح الاستعمار الوثني عن الحقد الموَّار في صدره، وكشف عما يكيد به لهذا الدين السماوي الحق، دين التوحيد الخالص، والإيمان القوي المجاهد، والعدالة المطلقة، والأخوة البارة، والرحمة الوريفة الْوَدُود، والحب الصادق النبيل، والسلام العطوف، والمساواة الحقة السمحاء.

هكذا هتكت عن وجه الاستعمار قناعه السحري الخلوب، فماذا ترون أيها المسلمون؟

هكذا أيدت تلك الصحيفة البرهان المشرق، والحجة البالغة - وطالما كذبتم بها - علىٰ أن البدعة سم استعماري زعاف فتاك، ولكن يحسبها عبيده، رحيقًا من خمرة الحب، وشهدًا يرف من كأسه عبير الخلود!! أيدت أن الخرافة نصل استعماري مرهف يصيب به كبد الأمة الإسلامية، علىٰ حين يظنها عُبَّادُه أنامل الرحمة تأسو منه الجراح!!

وَيْ!!وَيْ!! أيها الشاردون في تيه البدع، التائهون في مجاهل الأساطير، الجاعلون من الخرافات أربابًا لكم وآلهة!!

وَيْ!! وَيْ!! أحلاس القبور، ويا عبيد الرمم، وأسارىٰ العبودية الذليلة للأصنام، وسدنة الهوان الوضيع للطواغيت!!

وَيْ!! يا حملة القماقم، وحارقي البخور في هياكل النُّصُب، وحملة المشاعل الرعناء في ركاب المجوسية!! وي أحبار البدع، وكهان التصوف!!

هكذا أبىٰ الله إلا أن تفضحكم هذه التي استعبدتكم من قبل، وتستعبدكم الآن، وتلهب ظهوركم الذليلة بسياطها الملهبة، لترفعوا نعالها فوق هام أربابكم، ولتبنوا من أدناسها قباب آلهتكم، وتضمخوا بنتنها الخبيث مجالس الذكر لأصنامكم!!

وَيْ كيف أَذِنَ سيدكم المستعمر لهذه البغي الهلوك أن تفضح رواد حمأتها، ومن لطخوا إنسانيتهم بردغتها، وراحوا يعبدون رَبًّا صنع في مواخيرها؟! لِمَ لَمْ تجأر ضراعتكم إلىٰ هذه البغي الإنجليزية، وتخشع عبوديتكم علىٰ أعتابها هامسة في ذل: ويلاه منك يا ربتاه!!

أهكذا هُنَّا عليك أيتها الربة المقدسة الأستار؟!

لكن كيف يستطيع العبد أن يهمس بشكواه لرَبَّةٍ دان لها بالذل المطلق؟! في حين عوىٰ أولئك عواء آثم الضجيج علىٰ محطة الإذاعة!! أتدري لماذا؟! لأنها طيبت الأذان بعبير الوحي، فانبعث منها في صدق الضراعة: الله أكبر!!

مساكين هؤلاء!! لا ينسون للمستعمر أبدًا الإخلاص الذليل له، فهبوا سراعًا وجلين لأن الحق من الأذان جلجل يحي سنة ويميت بدعة!! فكيف يسكتون؟! كيف يرضخون للسنة يحييها رجل رشيد بصير؟!

لا لا! فإن السيد المستعمر ما باركهم، بل ما استذلهم إلا ليعلنوها حربًا شعواء علىٰ كل سنة نبوية مطهرة، وليقيموها مواكب للرقص العربيد، والمجانة الغوية احتفاء بكل بدعة!!

لقد خلق المستعمر القديم هذه التقاليد الجاهلية، ثم جلاها عروسًا متهالكة الأنوثة، مبذولة الإثم لكل راغب، فهلك بها من هلك، وقال عبادها: هذه هي حقيقة الإشراق الأعلىٰ من الروحية في الإسلام.

ومن قال ذلك؟! قوم ظنهم المسلمون حجة الإسلام، والشيخ الأكبر، وسلطان العاشقين، والهيكل الصمداني! والقطب الرباني!! وتلقفها المستعمر الجديد إنجليزيًّا أمريكيًّا، شيوعيًّا، صهيونيًّا، ثم راح يزيدها فتنة خلوبًا، وتقتلًا في

باحة الغواية فاتنًا، فهفا إليها من المسلمين أحبار وكهان وزعماء؛ وبيد هؤلاء خنق الاستعمار البغيض العالم الإسلامي كله!!

إن ما يفكر فيه عدو الإسلام حديثًا، عين ما فكر فيه عدو الإسلام قديمًا، ما نشرته «التيمز» هو بعينه ما سطر قديمًا عن وسائل حرب الإسلام، وإليك ما يقوله ابن حزم في كتابه الفصل: «لما امْتُحِنُوا - يقصد الفُرْسَ - بزوال الدولة منهم علىٰ أيدي العرب تعاظمهم الأمر، وتضاعفت لديهم المصيبة، وراموا كيد الإسلام، ورأوا أن كيده بالحيلة أنجع، فأظهر قوم منهم الإسلام، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت الرسول، ثم سلكوا بهم مسالك شتىٰ، حتىٰ أخرجوهم عن الإسلام مثل القول بالحلول[1] له، ونبوة من ادعوا له النبوة[2]، والمهدي وسقوط الشرائع».

ويقول المقريزي في الخطط (جـ٢/ صـ٣٦٢): (إن الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد علىٰ جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسها بحيث أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد، وكانوا يقدرون سائر الناس عبيدًا لهم، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم إلىٰ أيدي العرب، وكانت العرب عند الفرس أقل

(١) وهل سار بهذه البدعة سوىٰ الصوفية من زعيمهم الحلاج إلىٰ عصرهم هذا؟

(٢) وقد صنع المستعمر الحديث هذا أيضًا، فحملوا غلام أحمد القادياني علىٰ ادعاء النبوة، وكان لهم مطية ذلولًا، وكذلك حملوا ميرزا علي محمد الملقب بالباب، وميرزا حسين علي نوري الملقب بالبهاء، وابن عباس الملقب بعبد البهاء، والذي منح وسام فارس للإمبراطورية البريطانية!!

الأمم خطرًا تعاظمهم الأمر، وتضاعفت لديهم المصيبة، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتىٰ، ثم رأوا أن كيده علىٰ الحيلة أنجع، فأظهر قوم منهم الإسلام، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة بيت الرسول، ثم سلكوا بهم مسالك شتىٰ، حتىٰ أخرجوهم عن طريق الهدىٰ).

ويقول صاحب المواقف عن طائفة «الغيارية»: (هم طائفة من المجوس راموا عند شوكة الإسلام تأويل الشرائع[1] علىٰ وجوه تعود إلىٰ قواعد أسلافهم)، ويعلق شارحه علىٰ هذا بقوله: «وذلك أنهم اجتمعوا، فتذاكروا ما كان عليه أسلافهم من الملك، وقالوا لنا: لاسبيل لنا إلىٰ دفع المسلمين بالسيف لغلبتهم واستيلائهم علىٰ الممالك، لكنا نحتال بتأويل شرائعهم إلىٰ ما يعود إلىٰ قواعدنا، ونستدرج به الضعفاء منهم، فإن ذلك يوجب اختلافهم واضطراب كلمتهم»: اقرأ أيها المسلم الحق هذا، واقرأ ما كتبته «التيمز» الإنجليزية لتدرك معنىٰ قول الله سبحانه: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٣].

---

(١) وهل قام بهذا أحد قيام الصوفية به؟! وهل بلغ به أحد حد الزندقة مبلغهم؟!
حسبك هذا التأويل - علىٰ أنه أهون شيء عندهم - لكلمة القرآن!!
أتدري بم فسرها ابن عربي شيطان الصوفية وربهم الأكبر؟
الجمع بين الحق والخلق في حقيقة واحدة، أي وحدة الوجود!!
فكأنما القرآن الذي فرق بين الحق والباطل، وبين الرب والعبد، ويدعو عند الصوفية إلىٰ الإيمان بأن الرب عين العبد، وأن الحق عين الباطل!!
فماذا يقول عَبِيدُ ابن عربي؟ وهل ينكرون؟!

نعم تواصىٰ عدو الإسلام قديمًا، وعدوه حديثًا علىٰ هذا النوع من الكيد للإسلام، فكان قناعه بل كانت مطيته إلىٰ هذا، ذلك الكفر الخبيث الذي سموه: إسلامًا، والإسلام منه بريء!! ترىٰ هل يفهم المسلمون!؟

ولكن كيف وجُلُّهم ضحاياها، وفي كل بيت وقلب ودين منهم مأساة دامية!! لكننا لن نيأس بفضل الله وقوته، فإما قضىٰ علينا بغي هؤلاء، وإما قضينا عليهم بالحق من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن الله وحده نستمد المعونة والقوة والرعاية، والله غالب علىٰ أمره.

